ابن الحاجب المصري
وأثره في الدراسات اللغوية

للدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي بجامعة الكويت

الحركة النحوية في عصره :

كان للخلفاء الفاطميين قبل بني أيوب عناية خاصة بالنحو العربي وفضل كبير في نشره ، ورعاية كتبه ، ورصد الجوائز للنابهين من ابنائه وحرصهم على ان تسير كتبهم وتعاليمهم ورسائلهم على نهجه حتى انه بلغ بهم الامر ان عينوا ابن بابشاذ النحوي محررا في ديوان الرسائل والانشاء ، وكان ابن بابشاذ من كبار النحويين والقراء في هذه الدولة .

واذا كان الشأن كذلك في الدولة الفاطمية فان دولة بني أيوب لم تكن اقل منهم عناية بهذا العلم ، بل ان ملوك هذه الدولة جعلوا النحو فيمقدمة العلوم التي يتعلمونها لما له من فضل كبير في تقويم الالسنة ، وفهم القرآن ، ومعرفة اسرار السنة هذا فضلا عن انهم لم يكونوا عربا ، لانهم اكراد ، واللحن في السنتهم سليقة وطبيعة ، وقد جاءوا على انقاض دولة عربية ، كانت العربية في ابنائها جبلة وطبعا ، ومع هذا لم يقصروا في تعليمها ، والالمام بقواعدها والزموا ابناءهم بتعلمها لاختلاطهم بغيرهم ممن فسدت السنتهم ، وكثر اللحن في كلامهم .

لهذا فقد راى ملوك بني أيوب انهم احوج الى تعلم العربية ممن سبقهم من الفاطميين حتى تستقيم السنتهم ، ويصلح كلامهم ، وتفهم رسائلهم ، ويكونوا قريبين من هذا الشعب العربي الذي يخضع لحكمهم .

من أجل ذلك لم يكن عجيبا ان يضرب ملوك هذه الدولة بسهم وافر في ايجاد حركة نحوية قوية .

وقد بلغ بالملك العزيز ان ينتقل لطلب العلم بين الاسكندرية والقاهرة ولا يجد حرجا في ان يجلس مجلس التلميذ امام معلميه ، وكما اخذ هذا الملك الحديث في الاسكندرية عن الحافظ السلفي ، والفقه من ابي طاهر بن عوف الزهري اخذ النحو بمصر عن العلامة ابن بري النحوي (1) .

اما الملك الكامل فانه اشتهر بصفة خاصة بعلم النحو، وله فيه آراء وافكار مما هيأ له ان يكون عالما بهذا الفن ، مسلما بمسائله ، خبيرا بمشكلاته فاهما لخلافاته والغازه .

وهذه المنزلة التي بلغها الكامل جعلت العلامة ابن بري يمنحه اجازة في هذا الفن (2) .

ومعنى هذه الاجازة ان هذا الملك وصل الى درجة الافتاء في النحو والتعميق في مسائله والقدرةعلى حل مشكلاته .

1) النجوم الزاهرة ج 6 ص 127
2) النجوم ج 6 ص 228

يقول صاحب النجوم « ... وكان عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها فمن أجابه حظي عنده » (3) .

على ان هذه المنزلة التي وصل اليها الكامل فى علم النحو لم تصل الى الدرجة الكبيرة التي وصل اليها اخوه الملك المعظم عيسى ملك الشام فى هذا المضمار فقد كان المعظم عيسى اديبا نحويا ، يحب الادب ، ويقدر النحو والنحاة ولعل نشأته بالشام ، وقراءته الادب والنحو على تاج الدين الكندي كان لها أثر كبير فى تكوين شخصيته النحوية الادبية هذه الشخصية التي كانت المع شخصيات ملوك هذه الدولة ، وبخاصة فى الميدان العلمي .

وقد قرأ المعظم عيسى كتاب سيبويه على التاج الكندي والم بشرحه الكبير للسيرافي وكتاب سيبويه فى حقيقة امره مدرسة قائمة بذاتها فكل من فهم هذا الكتاب ، وركب هذا البحر ، ووقف على أسراره ، وغاص الى درره كان حريا به ان يتصدر فى النحو ، وان يكون علما من اعلامه .

ولم يقف امر المعظم عند هذا الحد ، بل انه نبغ فى القراءات والقراءات متلازمان ، فقرأ كتاب الحجة لابي على الفارسي فى القراءات على شيخه تاج الدين الكندي وقرأ ايضا عليه كتاب الايضاح لابي على الفارسي حفظا (4) .

لهذا كله يحق لنا ان نقول : ان احتضان الملك المعظم عيسى لعلم النحو والقراءات افاد هذا العلم فائدة جليلة ، لان الناس على دين ملوكهم كما يقولون فقد اقبل المتعلمون على النحو ، وفتح لهم الملك المعظم عيسى ابواب تعليمه ، وتعلمه بل انه جعل لكل من يحفظ كتاب سيبويه جائزة كبرى فتنافس الطلاب فى حفظه وتعاونوا على فهمه مما كان له اثر كبير فى ايجاد حركة نحوية ، وبخاصة فى اقليم الشام حيث يعيش هذا الملك ، وتعيش معه عطاياه وجوائزه .

ومن حسناته التي خلدها التاريخ انه انشأ مدرستين للتخصص فى الدراسات النحوية ، واحدة فى القدس والاخرى بدمشق .

«ومدرسة القدس تقع على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة الى الغرب بناها المعظم عيسى سنة 604 هـ وكان يدرس فيها الكتاب لسيبويه (5) .

هذا ، وقد كانت الدراسات النحوية قبل المعظم تدرس جانب المواد الاخرى فى المدارس المتعددة التي انشأتها هذه الدولة .

« ولم تخصص مدرسة لدراسة النحو الا هاتين المدرستين ، وكان معنى التخصص فى هذه المدارس ان المادة الاساسية فيها هي التي انشئت المدرسة من اجلها وليس ذلك بمانع من ان تدرس الى جانبها مواد اخرى (6) .

فى هذه الحياة الفكرية المتوثبة ، وفى هذه البيئة العلمية الناهضة عاش ابن الحاجب ، ولمع نجمه فى سماء النحو فى هذه الفترة من التاريخ فأصبح علما من اعلامه .

والحقيقة ان ابن الحاجب لم يحظ بعناية الباحثين كما يجب ، لان اخباره وآراءه ، واتجاهاته مبعثرة فى مراجع عديدة تحتاج الى عناء لجمعها ، وقيام دراسات حولها .

وقد شعرت بتوفيق كبير حينما استطعت ان اكشف عن شخصية هذا الرجل العظيم واميط اللثام عن آرائه واتجاهاته ، ومن غير فخر استطيع أن اقول ان هذه الدراسة لم يسبقني احد اليها .

من هو ابن الحاجب ؟

1) نسبه :

علم من اعلام مصر فى النحو واللغة ، والاصول والقراءات ، صاحب مدرسة فى النحو ، قائمة على نهج جديد .

وهو عثمان بن عمر بن ابى بكر بن يونس ، الامام العالم جمال الدين أبو عمرو المعروف بابن الحاجب الكردي .

---

3) النجوم ج 6 ص 237 .
4) النجوم ج 6 ص 267 .
5) خطط الشام ج 6 ص 119 لمحمد كرد علي .
6) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص 41 .

2 ــ نشـــاتـــــه :

ولد فى اواخر سنة 570 هـ باسنا من بـــــلاد الصعيد « وهي بلدة كبيرة خرج منها جمع كبير مـــن اهل العلم والادب (7) .

وقد انتقل الى القاهرة صغيرا ، لانه كما تحدثنا دائرة المعارف الاسلامية قد حفظ القرآن الكريم ، ودرس العلوم المتصلة به كالفقه واصوله على مذهب الامام مالك ، وكذلك النحو والادب (8) .

واشتهر بابن الحاجب ، لان اباه كان حاجبـــا للامير عز الدين موسك الصلاحي (9) ووظيفة الحاجب كانت فى هذا العصر وظيفة لها مكانتها الاجتماعية ، لان الحاجب « كانتمهمته ادخال الناس على السلطان حسبما تقتضيه الضرورة بالسماح لهم بالمثول بـــين يديه ، مراعيا فى ذلك مقامهم ، واهمية اعمالهم ولـــم تقف مهمته عند هذا الحد ، بل كان يفصل فيما يحدث بين الامراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه (10) .

وهناك رواية اخرى يرويها بعض المؤرخين حيث يقول : ان اباه لم يكن حاجبا ، وانما كان يصحـــب بعض الامراء فلما مات كان ابو عمرو صبيا فربـــاه الحاجب فعرف به ، ولكن الادفـــوي فى الطالـــع السعيد ينفي هذه الرواية ، ويؤكد ان الرواية الاولى هي المشهورة (11) .

3 ــ شيـــوخـــــه :

وانتقاله الى القاهرة ، واقامته فيها يسرت له الاتصال بكبار الشيوخ والعلماء والجلوس فى حلقاتهم، والاخذ عنهم ، والتأدب عليهم .

قرأ علي ابى الفضل الغزنوي ، وابي الجـــود اللخمي ، واخذ عن الشاطبي القراءات كما اخذ عنه النحـــو (12) .

ولم يقتصر ابن الحاجب على ما أخذ من علماء القاهرة فاتجه الى دمشق ليأخذ عن اساتذتها ، وكبار علمائها مما كان له اثر كبير فى تكوين شخصية ابـــن الحاجب العلمية التي استطاع صاحبها بفضل مـــا أوتيه من قوة فى التفكير وقدرة فى الذكاء ، ونبوغ فى العقل ان ينتفع بما أخذ من كبار العلماء فى عهده .

4 ــ حيـــاتـــــه :

ولما تسلح ابن الحاجب بما يتسلح به العالم من شتى انواع العلوم والمعرفة جلس للافادة وتردد بين القاهرة ودمشق مرات كثيرة ، واقامته بدمشق مكنته من أن يكون « مدرسا للمالكية » وشيخـــا للمستفيدين عليه فى علمي القراءات العربية (13) .

وقد كانت المادة التي تشغل حيزا كبيرا مـــن تفكيره هي مادة النحو فقد ظل فى دمشق يؤدي رسالة العلم والمعرفة ، وكان الاغلب عليه دراسة النحو(14). واقامته فى دمشق لم تستمر بسبب حادث العز بـــن عبد السلام مع الملك الاشرف فقد كان هناك خلاف بين العز وبين الاشرف ولم يجد العز من يقف فى جانبه من العلماء ويشد ازره فى محنته غير ابن الحاجب ، وكان هذا الموقف من ابن الحاجب سببا فى تغير الملك الاشرف عليه ، وكراهيته له ، مما ادى به ، وبصاحبه الى الخروج من دمشق والعودة الى مصر (15) وكانت عودته الى مصر سنة 628 (16) وفى مصر تصـــدر بالفاضلية ، وجلس فى موضع الشاطبي (17) .

---

7) الطالع السعيد للادفوي ص 16 مطبعة الجمالية.
8) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ج 2 ص 126 .
9) شذرات الذهب ج 5 ص 234 .
10) الظاهر بيبرس للدكتور جمال الدين سرور ص 132 .
11) الطالع السعيد من صفحة 188 الى 195 .
12) الطالع السعيد من صفحة 188 الى 195 .
13) البداية والنهاية ج 13 ص 179 .
14) روضات الجنات ص 8 ــ ع ص .
15) شذرات الذهب ج 5 ص 646 .
16) الذيل على الروضتين وفيات 646 هـ .
17) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص 139 د . بدوى .

وكان الشاطبي امام مصر فى علمي القراءات العربية ، وبالفاضلية كثر الطلبة وقصدوها من كل مكان من اجل ان يأخذوا العربية عن ابن الحاجب .

وظل ابن الحاجب متصدرا بالفاضلية يفيد تلاميذه ويملي عليهم من مختلف العلوم وبخاصة علم النحو والقراءات حتى انتقل للاسكندرية للاقامة فيها .

ويذكر الدكتور بدوي فى كتابه « الحياة العقلية » أن ابن الحاجب انتقل الى الاسكندرية بعد تصدره بالفاضلية ، ولا يدري سببا لهذا الانتقال (18) .

ويظهر لي ان ابن الحاجب — وان فتح له باب الفاضلية ، وجلس فى موضع رجل من كبار شيوخ مصر ، وهو الشاطبي — فقد كان مورده ممن قصدوه بالفاضلية لم يمكنه من الحياة الهادئة المستقرة التي تتطلبها حياة العلماء لتجود قرائحهم وتنتج عقولهم .

ولم يجد فى القاهرة من يحس بحاله ، ويشعر بحاجته ، فيكفيه مؤونة البحث عن الرزق . فهاجر الى الاسكندرية عله يجد فيها ما فقده فى القاهرة .

وقد اوحي الي بهذه الفكرة هذان البيتان اللذان يدلان على نفس قلقة وروح مضطربة ، وحياة بائسة.

يا اهل مصر رأيت ايديكم
عن بسطها بالنوال منقبضة

مذ جئت نازلا بأرضكم
اكلت كتبي كأنني ارضة (19)

على اية حال فقد القى ابن الحاجب عصا التسيار فى الاسكندرية ولم تطل مدة اقامته هناك ، فوافاه الاجل فى ضحى نهار الخميس سادس عشر من شوال ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ صالح بن ابي شامه سنة 646 هـ (20) .

5 — تلاميذه :

واشهر تلاميذه الذين اخذوا عنه : المنذري الدمياطي اخذ عنه الحديث اما علم العربية فقد اخذه عنه الرضى القسطنطيني (21) .

6 — ثناء العلماء عليه :

وصفه شهاب الدين ابو شامة فقال : « وكان من اذكى الائمة قريحة وكان ثقة حجة ، متواضعا ، عفيفا ، كثير الحياة ، منصفا ، محبا للعلم ، واهله ، ناشرا له محتملا للاذى صبورا على البلوى (22) .

واثنى عليه ابن خلكان فقال : وجاء لي مرارا بسبب اداء شهادات وسألته عن مواضع فى العربية فأجاب ابلغ اجابة بسكون كثير وتثبيت تام (23) .

7 — كتبه :

خلف ابن الحاجب وراءه تراثا ضخما من العلم، وبخاصة علم النحو وكان هذا التراث ممثلا فى كتبه . وقد قالوا عن هذه الكتب التي تركها لتحيي ذكره وترفع قدره عند النحويين ، والدارسين للنحو ، « انها كانت فى غاية الحسن ورزقت قبولا تاما بحسنها وجزالتها » (24) .

وكتبه النحوية كانت مدرسة قائمة بذاتها ، عاش على مائدتها النحويون . وقد قال عنه الرواة انه : « خالف النحاة فى مواضع ، واورد عليهم اشكالات والزامات مفحمة يعسر الجواب عليها (25).

وقد قال الادفوي يصف كتب ابن الحاجب : « ان الناس انتفعوا بتصانيفه لما فيها من كثرة النقل مع صغر الحجم ، وتحرير اللفظ » (26) .

---

18) نفس المصدر والصفحة .
19) روضات الجنات فى باب العين ص 8 ع . ص .
20) شذرات الذهب ج 5 ص 234 .
21) شذرات الذهب ج 5 ص 234
22) البداية والنهاية ج 1 ص 179 .
23) وفيات الاعيان ج 1 ص 314 ط بولاق .
24) روضات الجنات ، باب العين ص 48 .
25) شذرات الذهب ج 5 ص 234 .
26) تاريخ سورية ج 6 ص 237 ليوسف الياس مطران بيروت (ط بيروت) مطبعة بيروت سنة 1902

ومعنى هذا انه كان متمكنا من اللغة ، ملما باسرارها يسر له كثرة النقل والرواية .

ولاجل ان ينتفع الناس بتراثهم الماضي استطاع بسلامة ذهنه وقوة فهمه ، فجاءت كتبه وافية بالغرض الذي الفت من أجله ، وهو تيسير العلم ونشره في وضوح وايجاز .

ولهذا السبب راجت كتبه في بلاد العجم ، واهتم الناس بها هناك لما فيها من ايجاز وترتيب وتنظيم ، وتنسيق وتبويب .

قال صاحب كتاب تاريخ سورية : « ذكر هذين الكتابين » اي الكافية ومختصره في اصول الفقه — جميع البلاد خصوصا بلاد العجم واكب الناس على الاشتغلال بهما الى زماننا هذا .

واشهر كتب ابن الحاجب النحوية كتاب للكافية.

1 — الكافيـــــة :

عرفها كشف الظنون بانها : « مختصرة معتبرة، مغنية عن التعريف ، وهي دستور هذا الفن ، اذ بها يعرف أكثر مسائله ».

ولما كانت الكافية تشبه القوانين العامة ، او الخطوط الرئيسية منها وتحتاج الى تفسير وايضاح — الف لها شرحا ليبين الغرض من مسائلها والهدف من قوانينها وقد تداول الناس هذا الشرح ، واكبوا عليه وافادوا منه وشغلوا به وبالكافية .

وفي عهد ابن الحاجب كان الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى الايوبي محبا للنحو كأبيه فلما رحل ابن الحاجب عن دمشق الى الكرك نظم لهذا الملك مقدمته الكافية ، وسمى هذا النظم بالوافية ، ولم يكتف بنظمها ، بل شرحها له (27) .

وهذا الصنيع من ابن الحاجب يدل على رغبته القوية في تذليل النحو وتسهيله من أجل ان تهضم قواعده ، وتشرح غوامضه .

هذا وقد تسابق العلماء على شرح كافيته ، فظهر لها شروح كثيرة باللغة العربية ، وبالفارسية والتركية .

واهم شروحها باللغة العربية :

1) شرح الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي .

قال السيوطي : « لم يؤلف عليها ، بل ولا على غالب كتب النحو مثله جمعا وتحقيقا فتداوله الناس ، واعتمدوا عليه ، وله فيها ابحاث كثيرة ومذاهب ينفرد بها ، فرغ من تأليفه سنة 686 هـ (28) .

2) وصنف السيد ركن الدين حسن بن محمد الاستراباذي الحسيني ثلاثة شروح على الكافية : كبير وهو المسمى بالبسيط ، ومتوسط وهو المسمى بالوافية ، وهو المتداول وصغير وتوفي سنة 777 هـ .

3) وشرحها تاج الدين ابو محمد احمد بن عبد القادر ابن مكتوم القيسي الحنفي المتوفى سنة 749 هـ.

4) ومن الملوك الذين اهتموا بشرحها : الفاضل الملك المؤيد عماد الدين بن الافضل علي الايوبي المعروف بصاحب حماة المتوفى سنة 732 هـ وهوشرح لطيف علقه من شرح المصنف لهذه المنظومة ومن غيرها من شروح الكافية ، وفرغ من تاليفه في شعبان سنة 722 هـ .

5) وقد اسهم في شرحها الامام تاج الدين ابو محمد على بن عبد الله بن ابى الحسن الاشبيلي ثم التبريزي ، نزيل القاهرة المتوفى في رمضان سنة 746 هـ وهو شرح كبير كشرح الرضى ، وفرغ من تسويده لثلاث بقين من محرم سنة 742 هـ سماه : مبسوط الكلام في تصحيح ما يتعلق بالكلم والكلام .

6) ولشمس الدين محمود بن عبد الرحمن الاصفهاني المتوفى سنة 749 هـ شرح كبير كالرضى ، قدم فيه عشر معلقات نافعة . (29)

---

27) كشف الظنون مجلد 2 نهر 1370 وما بعده .
28) نفس المصدر والجزء والنهر ، وما بعده .
29) كشف الظنون مجلد 2 نهر 1370 وما بعده .

وبعد ، فلا استطيع فى هذا المقام ان أعـــدد جميع شراح الكافية ، واكتفي بما ذكرت ، وقد سجل حاجي خليفة فى كشف الظنون شراح هذه الكافية (30) والحواشي التي وضعت على هذه الشـــروح ، ولا يسعني فى هذا المقام الا ان ابين ان الكافية شغلت العلماء طوال العصور منذ عصر ابن الحاجب الـــى يومنا هذا ، ومن ثم كثـــرت الشروح والتعليقـــات عليها ، ولا زالت الكافية وشروحها مصدرا كبيرا مـــن مصادر الدراسة النحوية فى عصرنا هذا .

والحق الذي لا ينكر ان الذي اضفى على هذه المقدمة شهرة واسعة النطاق هو شرح الشيـــخ رضى الدين الاسترابادي ، هذا الشرح الذي انتشر ذكره وعمت دراسته ، وبخاصة فى بلاد العجم حيث ترجم الى الفارسية .

وكان انتفاع العجم بالمقدمة وشروحها اكثر من انتفاع مصر والشام بها وذلك لانه وان اسهم بعض علماء هذين الاقليمين بشرح هذه المقدمة والتعليـــق عليها فان هذه الشروح لم تنتشر بين الطلاب ويشتهر امرها كما كان ذلك فى بلاد العجم .

ولعل لهذا سرا ، فان ابن الحاجب كان يميل الى الفلسفة والمنطق والقياس والتعليل ، وقد سادت فيه هذه الروح منذ ان نبغ فى علم الأصول وعلم الاصول تقوم قضاياه على النهج المنطقي .

وكان اهل مصر ينفرون من الفلسفة ، ويفرون من المنطق ، ويحبون الوضوح فى كل شيء ، فى حين ان اهل العجم كانوا يميلون الى الفلسفة ويتجهـــون فى دراستهم الى المنطق ، فكان ذلك ادعى الى ان تروج كتب ابن الحاجب وبخاصة الكافية فى بلاد الفرس ، على حين انها تقف فى دائرة ضيقة محدودة فى الاقليمين المصري والشامي .

ـــ وكما قدمت سابقا ـــ ان هذه المقدمة نفخ فيها من روح الحياة ووضع فيها سر الخلود هو الرضى بشرحه ، ولم ينتفع اهل مصر والشام بهذا الشرح لانه نقل الى مصر فى زمن متأخر ولم ينقل الى مصر الا بعد عصر ابي حيان وابن هشام ، فلم يقفا على هذا الشرح (31) .

ولقد حلفت شيرة كتب ابن مالك فى الاقليمـــين على هذه المقدمة وشروحها فلم يكتب لها الحيـــاة فى مصر والشام الا فى زمن متأخر حينما نقل شـــــرح الرضى الى الاقليمين .

منهجـــه فى الكافيـــة :

رغب ابن الحاجب فى ان تيسير النحو لطلابـــه ، فعمد الى كتاب المفصل للزمخشري واختصر منه هذه المقدمة الصغيرة وسماها : الكافية ، ولعل اسمهـــا يدل على الغرض الذي من اجله الفت فهي تغنـــي الناشيء او المتعلم عن كتب النحو المعقدة التـــي تحتاج الى ملم بهذا الفن ، خبير بمسائله .

وقد سار ابن الحاجب فى ترتيبه لابواب الكافية كما فعل الزمخشري فى كتاب المفصل فالناظر فيه يرى انه مقسوم على اربعة اقســـام : الاول ـــ فى الاسماء ، والثاني ـــ فى الافعال، والثالث ـــ فى الحروف والرابع ـــ فى المشترك من احوالها .

وقد نهج على هذا التقسيم ابن الحاجب ، فقسم الكافية الى اربعة اقسام : اسماء ، وافعـــال ، وحروف ، ومشترك من احوالها .

واغلب الظن ان هذا الترتيب والتقسيم لم يكن من مبتكرات الزمخشري فقد سبقه فى هذا ابو علي الفارسي فى كتابه « الايضاح » فقد كان اول مـــن ابتكر هذا الترتيب ، وسنه للمعاصرين له من تلاميذه وللخالفين من النحاة من بعده (32) .

على ان ابن الحاجب لم يكن بعيد الصلة عـــن كتاب الايضاح لابي علي ، لان هذا الكتاب عني بـــه المصريون منذ ان بدا النحو فى مصر يستقر على دعائم ثابتة على يد النحو المصري ابن بري ، وابن بـــري من الذين عنوا بالايضاح وشرحوه (33) .

---

30) كشف الظنون مجلد 2 نهر 1370 وما بعده .
31) هامش كشف الظنون نهر 1370 مجلد ـــ 2 .
32) ابو علي الفارسي للدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ـــ ص 521 ـــ مطبعة مصر الجديدة .
33) سيبويه امام النحاة ـــ للاستاذ على النجدي ص 187 .

وظل هذا الكتاب المحور الذي يدور حوله النحاة منذ القرن الرابع الهجري حتى عصر ابن الحاجب الذي اسهم بنصيب كبير في شرحه لهذا الكتاب .

فابن الحاجب اذن لم يكن تأثره بالايضاح اقل من تأثره بالمفصل ، فقد شرح الكتابين وكان لهما عليه تأثير كبير في نحوه ، بل وفي آرائه مما سأبينه بعد .

على أية حال ، فقد كانت الكافية تسير مقتفية خطى المفصل والايضاح في الترتيب والتنظيم وفي التبويب والتقسيم ، وان كان كل من المفصل والايضاح كتابا كاملا جمع النحو ، وحوى قواعده ، فان الكافية تلخيص موجز غاية الايجاز لهذين الكتابين مما ادى الى صعوبة فهمها ، وادراك مسائلها الامر الذي حدا الكثير من النحويين للتصدي لشرحها ، والتعرض للتعليق عليها ، حتى بلغت تعليقاتها وشروحها ما يربو على الستين شرحا (34) .

اسلوب الكافية :

ابن الحاجب في الكافية عمد الى التلخيص والايجاز لدرجة أن الدارس لها يجد صعوبة في فهمها ، وحل تراكيبها ، والوقوف على الغرض من عباراتها فهو وان حاول بهذا العمل ان يلخص النحو ، ويقدمه قواعد سهلة للمبتدئين الا انه خانه الحظ في الوصول الى هذا الغرض ، فجاء تلخيصه يحمل الفاظا غير واضحة ولعل ابن الحاجب احس انه لم يوفق في هذا التلخيص كل التوفيق فاتجه الى شرحه ليتير الطريق لسالكه ، ويعبد السبيل لدارسه .

ولا ادل على ذلك من ان الرضى شارح الكافية كان يعاني من اسلوبها وتراكيبها الشيء الكثير مما ادى به الى مهاجمة المصنف ولومه على هذه الصعوبة التي كانت شعار اسلوبه في مقدمته فيقول :

« قال ابن الحاجب في مقدمته في اعراب الاسم » وهو معرب ومبني فالمعرب المركب الذي لم يشبه مبنى الاصل » .

وعلق الرضى بقوله « ولفظ المركب يطلق على شيئين على احد الجزاين او الاجزاء بالنظر الى الجزء الآخر او الاجزاء الاخرى ، كما يقال في ضرب زيد مثلا ان زيدا مركب الى ضرب ، وضرب مركب الى زيد فهما مركبان .

ويطلق على المجموع فيقال ضرب زيد مركب من ضرب ، ومن زيد ، وهذا كما يقول مثلا لاحد الخفين هو زوج الآخر ، ويقول لهما معا : زوج .

ومراد المصنف المعنى الاول ، وليس بمرض ، لان المركب في اصطلاحهم في المجموع اشهر منه في كل واحد من جزئيه ، او اجزائه ، فيوهم ان المعرب من الاسماء لا يكون الا مركبا في شيئين فصاعدا كخمسة عشر ونحوه (35) .

ثم قال الرضى : وهذا داب المصنف يورد في حدود هذه المقدمة الفاظا غير مشهورة في المعنى المقصود اعتمادا منه على عنايته وينبغي ان يختار في الحدود والرسوم اوضح الالفاظ في المعنى المراد ويحترز عن الالفاظ المشتركة فكيف باستعمال لفظ هو في غير المعنى المقصود اظهر (36) .

2 — الشافية :

وكما الف ابن الحاجب كافيته في النحو الف الشافية في الصرف وكذابه في شرح ما الف ، وتوضيح ما انتج شرح الشافية .

واشهر من شرحها من نحاة مصر في القرن الثامن الهجري ابن هشام الذي الف لها شرحا في مجلدين سماه : عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب وتوفي ابن هشام سنة 672 هـ .

وكما انتشرت الكافية في مصر والشام في العصور المتأخرة انتشرت ايضا الشافية وظلت محور الدراسة والبحث حتى عصرنا هذا فقد قرر تدريسها في بعض المعاهد العلمية المهتمة بالنواحي اللغوية والنحوية .

---

34) كشف الظنون ج 1 ص 212 .
35) شرح الرضى على الكافية ج 1 ص 14 .
36) كشف الظنون مجلد 2 نهر 1020 .

3 — الأمـــالـــي :

امالي ابن الحاجب تضمنت آراءه فى بعـــض المشكلات النحوية وتوجيهات لبعض الآيات القرآنية وتعليقات على كتاب المفصل للزمخشري وآراء فى بعض الابيات لكبار الشعراء وتخريجها .

وقد أملى هذه الامالي على تلاميذه فى حلقات متعددة وأزمنة مختلفة وامكنة متباينة .

وفى النسخة المحفوظة بدار الكتب (رقـم 1007 نحو) نقرأ فى الصفحة الاولى من الامالي ما يأتي :

« هذه الاجزاء مشتقة على امالى متفرقـة فى النحو جليلة ، من كلام الشيخ الامام العلامة حجـة العرب وفخرهم منشىء العلوم والمرجع اليـــه فى تقريرها وتحريرها جمال الدين عمرو بن الحاجب برد الله مضجعه وطيب مهجعه ، منها ما يتعلق بكتاب المفصل للزمخشري . ومنها ما يتعلق بأبيات عربيـة ومحدثة وغير ذلك . وهذه الامالي عزيزة الوجـــود مضنون بها على غير اهلها ، بل على اهلها لغايـة شرفها وعظيم نفعها (37) .

وكطبيعة كتب الامالي لم تكن فى امالي ابـــن الحاجب وحدة ، أو تنظيم وترتيب ولكنها خواطـر وآراء أمليت فى ازمنة متعددة فى القاهرة ودمشق .

وقد بدأ بها سنة 609 هـ فى القاهرة ، لانه قد جاء فى اماليه ، وانه قال ايضا ممليا فى القاهرة سنة تسع على قوله تعالى « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا » (38) .

وقد تتبعت سنوات الاملاء فى القاهرة ، فلم اجد له املاء قبل هذا التاريخ وظل يملي آراءه فى القاهرة حتى سنة 616 هـ بدليل ما جاء فى اماليه « انه املى فى القاهرة سنة ست عشرة على قوله تعالـى : « ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى » (39) .

وفى سنة 617 هـ نجده ينتقل الى دمشق ويملي بها ، ويظل يملي حتى سنة 625 هـ (40) . وهي السنة الاخيرة فى سنوات املائه هذه الآراء مما يرجح ان ابن الحاجب مكث فى القاهرة يعلم ويملي حتى سنة 616 هـ ثم انتقل بعد ذلك الى دمشق سنة 617 هـ ، وبقي يقرأ بجامعها ، ويملي هذه الامالي حتى سنة 625 هـ وظل بدمشق بعد ذلك ينشر رسالة العلم حتى سنة 628 هـ حيث وقعت الفتنة بين الملك الاشرف ، وبين عز الدين هذه الفتنة التي ادت بابن الحاجب الى العودة الـى القاهرة ، ثم الانتقال منها الى الاسكندرية حيث لقي ربه سنة 646 هـ .

4 — شـــرح الايضاح لابي على الفارسي :

وكتاب الايضاح هذا شرحه كثير من النحويين قبل ابن الحاجب وعنوا به عناية فائقة وكان هـــذا الكتاب يسير جنبا الى جنب مع كتاب سيبويه .

وهو كتاب متوسط يشتمل على مائة وستـــة وتسعين بابا منها الى مائة وستة وستين نحـــو ، والباقي الى آخره تصريف .

ومن الذين صنفوا له شروحا ابن الحاجب وسماه — المكتفي للمبتدىء (41) .

5 — شـــرح المفصـــل :

ولم ينس ابن الحاجب ان يشرح كتاب المفصل للزمخشري فى كتاب سماه « الايضاح » وهو الـذي تاثر بالزمخشري فى مفصله ، حتى اختصر كافيته . وهذا الشرح منه نسخة بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم 545 ب واخرى بمكتبة ابراهيم باشا رقم 18 وثالثة بمكتبة سوهاج رقم 5 نحو (42) .

6 — شـــرح كتـــاب سيبـويـــه :

ولكتاب سيبويه ، كما قلت سابقا منزلة كبيرة عند النحاة المصريين والشاميين فقد اهتموا به منذ ان عرفوا هذه الدراسات النحوية .

---

37) الامالي — ابن الحاجب ، مخطوط رقم 1007 نحو (دار الكتب)
38) الحجـــر — 47 .
39) البقـــرة — 282 .
40) الامالي — ابن الحاجب مخطوط رقم 1034نحو.
41) كشف الظنون — ج 1 نهر 212
42) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص 107 .

وقد شرحه ابو جعفر المعروف بابن النحاس المتوفى سنة 338 هـ .

وشرحه ايضا وانتقده ، وانتصر له احمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة 332 هـ وشرحه ايضا ابن الحاجب ليقرب نحوه لابناء عصره ويوقفهم على اسراره وتركيبه (43) .

7 — ولابن الحاجب قصيدة فى المؤنثات السماعية طبعها هافنر وشيخو فى بيروت سنة 1908 (44) .

8 — رسالة فى العشر — وهو بحث صغير فى استعمال كلمة عشر مع الصفتين أول وآخر ، طبعت فى بولين رقم 6894 (45) .

9) وكما كان ابن الحاجب علما فى النحو والصرف كان علما ايضا فى علم العروض فله منظومة من البحر البسيط عن العروض سماها : « المقصد الجليل فى علم الخليل » فى ليدن فهرس 2 رقم 273 ، وبرلين رقم 7126 (46) .

وبعد ، فلست فى حاجةالى ان ابين شخصية ابن الحاجب فى علمي الاصول والفقه ، فقد كان فى هذا المضمار وحيد عصره له انتاج ضخم يشيد بقدره ويشير بفضله ، ويرفع من ذكره .

وهكذا كان ابن الحاجب علما فى النحو والصرف والعروض ، ونابغة فى الفقه والاصول . وقلما تيسر العالم ان يجمع بين هذه العلوم وينبغ فيها ويجلس على قمتها اللهم الا اذا كان يتمتع بعقل ناضج ، وفكر ثاقب ، وذكاء لامع ، وقريحة وقادة ، وادراك واسع .

وقد وجد هذا كله فى ابن الحاجب ، كما شهد له بذلك العلماء واثنى عليه الفضلاء .

ويكفي ان مؤرخيه ذكروا عنه انه كان ركنا من أركان الدين والعلم .

8 — آراؤه واتجاهاته :

1) أثر الفلسفة والمنطق فى اتجاهاته النحوية:

صلة النحو بالفلسفة قديمة ، بدات حينما ظهر المنطق اليوناني فى مدينة البصرة التي كانت حينئذ مركزا كبيرا لفلاسفة المعتزلة الذين تأثروا بالمنطق الارسطي فى اتجاهاتهم الكلامية .

ومن غير شك ان نحاة البصرة وعلى راسهم سيبويه لم يكونوا فى معزل عن هذا التيار الجارف ، تيار الفلسفة والمنطق فتأثروا به .

وقد كان النزاع الذي ظهر منذ القرن الثاني بين مدرسة القراء وبين مدرسة الكلام كان له اثره فى اتجاه النحاة البصريين الى الاخذ بمبادىء مدرسة الكلام وتجنبهم الخصائص التي تتجه اليها مدرسة القراءة التي تعتمد على الرواية والنقل ، فى حين تعتمد المدرسة الاولى على القياس والعقل .

يدل ذلك على ما رواه الشعبي : «من ان القراءة سنة فاقرءوا كما قرأ اولكم » (47) .

وفيما قاله الداني من ان ائمة القراءة لا تعمل فى شيء من حروف القرآن على الافشى فى اللغة ، والأفيش فى العربية، بل على الاثبت فى الاثر، والاصح فى النقل والرواية ، واذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لان القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها والمصير اليها (48) .

واستمرت النزعة الكلامية التي تقوم على الجدل والمنطق تعمل عملها فى النحو منذ عصر سيبويه الى عصر ابن الحاجب ، فلقد تسربت اصطلاحاتهم وطرائقهم الى النحو حتى انه روي عن ابن جني انه قال ان اصحابنا انتزعوا العلل عن كتب محمد بن الحسن وجمعوها منه بالملاحظة والرفق .

---

43) سيبويه امام النحاة — ص 188 الاستاذ على النجدي .
44) دائرة المعارف الاسلامية م 1 ص 127 .
45) المصدر السابق .
46) المصدر السابق .
47) غاية النهاية ج 1 ص 357 لابن الجزري (مطبعة السعادة)
48) النشر فى القراءات العشر ج 1 ص 10 لابن الجزري ، تحقيق محمد احمد دهمان ط اولى مطبعة التوفيق بدمشق .

والحق الذي يقال ــ ان ابن جنى قد وضع الامر فى نصابه حينما قرر العلاقة القوية بين النحو وبين علم الكلام والاصول ، بل انه لم يقف عند هذا الحد فقرر ان علل النحو انتزعت من كتب محمد بن الحسن وجمعت منها ، وكتب محمد بن الحسن تقوم على الاصول والمنطق لان اصول الفقه تعتمد كل الاعتماد على الاقيسة العقلية ، والقضايا المنطقية وقد نقل السيوطي فى الاقتراح : « ان ابن جني قال ، اذا ادرك القياس الى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه ، ثم علق عليه بقوله : وهذا يشبهه فى اصول الفقه نقض الاجتهاد اذا بان لنص بخلافه » (49) وهذا النص الذي ذكره ابن جني يوضح تمام الوضوح ، كيف يقتفي النحاة اثر الاصوليين فى نظرياتهم وقواعدهم ومناهجهم .

وبعـــد :

فاننا اذا اردنا ان ننظر الى اتجاهات ابن الحاجب النحوية فلا ننسى انه كان اصوليا بل وقد كان ضليعا فى علم الاصول ، فقد صنف فيه مختصرا وآخر اكبر منه سماه المنتهى (51) .

ولغلبة المنطق والفلسفة على ابن الحاجب ، قال عنه المؤرخون انه كان فقيها مناظرا مفتنا (52) .

وكل الذين كتبوا عن ابن الحاجب ذكروا انه خالف النحاة فى مواضع ، واورد عليهم اشكالات والزامات تتعذر الاجابة عنها (53) .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية انه اشتهر فى النحو على وجه خاص وهو فى هذا الميدان يختلف من عدة وجوه عن اسلافه (54) .

وحينما يورد ابن الحاجب اشكالاته والزاماته للنحويين ليجيبوا عنها ، وهي اشكالات ملحمة والزامات معقدة وحينما تذكر عنه دائرة المعارف ، انه يختلف عن اسلافه من عدة وجوه اليس هذا دليلا واضحا على ان الرجل كان يمزج النحو بالفلسفة وكان يورد القضية النحوية ووراءها دليلها المنطقي . كل ذلك يوضح لنا اثر علم الاصول ، وقضاياها واقيستها ومنطقها فى نحو ابن الحاجب .

واذا حاولنا ان نأتي بأمثلة تؤيد هذا الاتجاه ، فاننا نجد الكثير منها .

مثـــال ذلـــك :

1) فى موضوع مسوغات الابتداء بالنكرة يرى ان كل ما دل على معنى العموم صالح للابتداء ، وخرج الآية القرآنية ، « ولعبد مؤمن خير » على هذا الاتجاه (55) .

قال ان المسوغ للابتداء فى الآية انما هو معنى العموم وخير خبر المبتدا « قال لانا قاطعون بأن المراد المفاضلة بين الجنسين لا افرادهما المخصوصة » .

واذا قرر ابن الحاجب ذلك لا يكتفي بمجرد سرد الفكرة ، وذكر الراي انما يحاول ان يدعمه بحجته المنطقية ، وادلته الفلسفية ما استطاع الى ذلك سبيلا وسبيله الى هذا سبيل الحوار والجدل يورد اسئلة يقتضيها المقام ، ثم يجيب عنها اجابة تكشف حقيقتها ، وتوضح غموضها وهذا من غير شك اثر من آثار الفلسفة والمنطق وهاك الدليل :

يقول : فان قلت ــ المسوغ هنا الصفة ، قلت لا يستقيم لانها انما تكون معتبرة فى الموضع الذي لا يراد فيه الجنس ، وتاتي هي مخصصة لذلك المفرد المقصود ، وهو مع ذلك ضعيف ، قليل استعماله ورب فكرة بلا صفة اخص مما لها صفة ، والذي اضعفه انه اذا صح جسم حي فى الدار لوجود التخصص بالصفة ينبغى ان يجوز ، رجل فى الدار لانه اخص منه بدرجات ثم قال ــ « فان قلت الدليل

---

49) الاقتراح ص 86 .
50) الاقتراح ص 86 .
51) روضات الجنان باب العين ص 8 ــ ع ــ ص .
52) نفس المصدر .
53) شذرات الذهب ج 5 ص 234
54) المجلد الاول ج 2 ص 126 .
55) البقرة 221 .

على ان المخصص بالصفة انك لو قلت : ولعبد خير باسقاط الصفة لم يجز ، قلت هو مستقيم فى الاعراب، الا ترى انك اذا قلت ــ العالم قديم لكان كلاما مع انه كذلك (56)

اليس هذا الحوار فلسفة ؟ وماذا تكون الفلسفة اذا لم تكن هذه النظرات فلسفة ؟ والذي لا شك فيه ان الفاظ العموم ، والخصوص والاعم والاخص اصطلاحات اصولية تقوم عليها نظرات علم الاصول .

وطريقته فى الاستدلال من غير شك طريقة منطقية فهو يذكر القضية ويورد الاعتراضات عليها ، ثم يهدم هذه الاعتراضات اعتراضا اعتراضا ليخرج بالنتيجة التي قررها أولا .

2) القياس اصل من اصول الفلسفة وركن كبير من اركان الاصول كان ابن الحاجب يستخدمه فى كثير من آرائه النحوية ، فاذا ما خرج شيء عن القياس ، وشذ عنه فان هذا لا يقنع ابن الحاجب ، بل يحاول ان يبحث ويدقق حتى يجد له نظيرا فيلحقه به .

يقول فى كتاب الامالي فى مطلب ربه رجلا : الضمير فى قوله ، ربه رجلا ليس بنكرة وانما كان حكمه حكم النكرات باعتبار كونه مبهما اطلق عليه النكرة لذلك ، ولذلك لم يوصف لانه ضمير بلا خلاف ، والضمائر لا توصف ، ثم قال انه مفرد على كل حال لانه مضمر على خلاف القياس اتى به لغرض الابهام فوجب أن يكون مفردا قياسا على نعم .. انتهى (57) .

3) وتراه يعقب على الزمخشري تعقيبا فلسفيا منطقيا حينما قال ــ مملبا على قوله فى المفصل ــ المبني هو الذي سكون اخره وحركته لا يعامل ــ قال ابن الحاجب هذا الحد ليس بمستقيم لانه اتى فى الحد بواو العطف فان قصد الجمع لم يستقم اذ ليس شيء فيه سكون وحركة فى آخره وان قصد معنى أو كان فيه تزود لفظي فى استعماله الواو بمعنى او ، واستعماله لفظ أو فى الحد الواحد (58) .

4) وابن الحاجب له بصر بفلسفة الكلمات ، ولمس المعاني الخفية التي تتحملها والتي لا يبصرها كثير من الناس وذلك لان دقته فى الاصول كشفت له عن كثير من جوانب اللغة والمعاني التي ترمز اليها الكلمات فقد أملى بدمشق سنة أربع وعشرين وستمائة ــ على قوله فى المفصل فى حروف التخصص:

« ان قبل ان حروف التخصص اذا وقع بعدها الماضي فيستحيل فيها معنى الطلب لاستحالة طلب الفعل بعد مضي وقته وان لم يكن فيها معنى الطلب تعذر النصب بعدها بالفاء ، والجزم بغير فاء » .

وهذا اعتراض فى ظاهره وجيه ، لانه اعتراض واقعي ، فما دامت حروف التخصيص ليس فيها معنى الطلب لاستحالة طلب الفعل بعد مضي وقته ، فلا يصح حينئذ ان ينتصب بعدها الفعل أو يجزم بغير فاء .

ولكن ابن الحاجب تسعفه فلسفته فى هذا المقام فيجيب عن هذا الاعتراض بما يقنع به نفسك ، أو يجعلها قريبة من الاقناع حينما يقول :

« فالجواب أنها لا تنفك عن افادة معنى الطلب فى الوقت الذي كان صالحا له ، وانما أوقع بعدها الماضي تنبيها على ان المطلوب منه ذلك ، فوته حتى انقضى وقته ، فصار كالتوبيخ واللوم على ترك المطلوب فباعتبار ما فيه من معنى الطلب المقدر فى وقته نصب جوابه بعد الفاء ، وجزم بغير فاء » ... انتهى (59) .

هذا الاتجاه الفلسفي أو الاصولي فى نحو ابن الحاجب ظاهر فى معظم آرائه وتوجيهاته النحوية ، مما يدل على ان الرجل كان بصريا فى اتجاهاته منطقيا فى آرائه فلسفيا فى تحقيقاته اصوليا فى تعبيراته وتخريجاته » .

2 ــ ابن الحاجب مع البصريين :

نحو البصرة كان النحو السائد لعلماء مصر والشام منذ الرحلات القديمة التي قام بها علماء مصر اذ ذاك امثال ابن ولاد ، وابن النحاس الى العراق ، والتزود من الدراسات النحوية فيه .

---

56) حاشية ياسين ج 1 ص 169 (الحبلي) .
57) الأمالي لابن الحاجب ص 63 من النسخة رقم 1034 نحو دار الكتب .
58) نفس المصدر .
59) الامالي لابن الحاجب ص 67 مخطوط نسخة رقم 1034 نحو دار الكتب .

وكتاب سيبويه الذي حوى مسائل النحو البصري ، والذي احاط بكثير من اصولها وفروعها وعللها، واقيستها ، سار هذا الكتاب سير الشمس في جميع الاقطار الاسلامية واشتغل الناس به درسا وتمحيصا وشرحا واختصارا .

ويحدثنا التاريخ انه ما من عالم مصري ، او شامي ذهب الى العراق الا وكان كتاب سيبويه هو غايته الاولى ، يدرسه على كبار الشيوخ ثم يعود الى مصر والشام لينشر هذا الكتاب بين الطلاب ، اما بشرحه كما فعل ابو جعفر المعروف بابن النحاس (60)

واما بنقده والانتصار له كما فعل احمد بن محمد ابن ولاد (61) ولم يكن الامر مقصورا على هذه الرحلات الى العراق فحسب ، فقد كان هناك كثير من علماء العراق يفدون الى مصر أو الشام ويطيب لهم فيها المقام ، ويتصدرون في النحو على اصول كتاب سيبويه فابن بري قرأ العربية على مشايخ زمانه من المصريين والقادمين على مصر ، وحصل له من ذلك ما لم يحصل لغيره وانفرد بهذا الشأن ، وقصده الطلبة من الآفاق وكان عالما بكتاب سيبويه وعلله واكثر الرؤساء بمصر استفادوا منه وأخذوا عنه (62) .

وعبد الله بن اسحاق الصيمري النحوي ابو محمد قدم مصر وحفظ عنه شيئا من اللغة وغيرها ، وصنف كتابا في النحو سماه (التبصرة) .

وهذا الكتاب احسن فيه التعليل على مذهب البصريين (63) .

وعبد الرحمن بن اسحاق ، ويعرف بالزجاجي صاحب الجمل نزل بغداد ولزم الزجاج حتى برع في النحو ، ثم سكن طبرية ، واملى وحدث بدمشق عن الزجاج ونفطويه وابن دريد ، والاخفش الصغير وغيرهم (64) .

وكتاب الجمل « هو كتاب المصريين والشاميين الى ان اشتغل الناس باللمع لابن جني ، والايضاح لابي علي الفارسي » (65) .

والجمل واللمع والايضاح منابع من معين كتاب سيبويه البصري . وعلي بن سليمان الاخفش الصغير الذي قد قرأ على المبرد ، زعيم المدرسة البصريةفيما بعد . قدم مصر سنة سبع وثمانين ومائتين وخرج الى حلب سنة ثلاثمائة وله شرح لسيبويه (66) .

هؤلاء العلماء الوافدون الى مصر من العراق ، وعلماء مصر الذين وفدوا الى العراق احدثوا في مصر نهضة نحوية قوامها كتاب سيبويه ، وما اشتق منه من كتب وظل الامر كذلك حتى تسلم ابن الحاجب هذا التراث البصري الممثل في كتاب سيبويه فحافظ عليه ، وعمل على نشره لانه الف فيه شرحا (67) .

لهذا لم يكن عجيبا ان يكون ابن الحاجب بصريا في آرائه وميوله في اقيسته وتعليلاته ، واثر سيبويه في ابن الحاجب واضح وضوحا لا ينكر .

والامثلة التي تدل على تأثر ابن الحاجب بالبصريين كثيرة سجلتها مختلف الكتب النحوية واني اكتفي هنا بمثال واحد تتبين فيه حرارة الدفاع عنهم ، وعمق التأثر بهم ، نراه في هذا المثال يعرض آراءهم ثم يترصد للنقد الذي وجه أو من الممكن ان يوجهاليهم فيهدمه بأدلة منطقية ليدعم مذهب البصريين .

قال في « الأمالي » في خبر ما ، ولا المشبهتين بليس » .

« واختلف الناس في — لا — هذه ، فقال البصريون : هي المشبهة بليس لانها الحقت التاء المختصة بالافعال ، فلولا شبهها بالفعل لم تلحقها واذا كانت المشبهة بالفعل فهي التي بمعنى ليس .

وايضا ، فان المعنى على قولك ، ليس هذا الحين حين مناص ، وشبهه بما تقع فيه لات، وافتقروا

---

60) سيبويه امام النحاة على النجدي ص 188 .
61) نفس المصدر ص 188 .
62) انباه الرواة ج 2 ص 111 .
63) انباه الرواة ج 2 ص 123 .
64) البغية ص 297 .
65) الانباه ج 2 ص 161 .
66) البغية ص 338 .
67) دائرة المعارف الاسلامية م 1 ص 126 .

ما يلزمهم لقيام هذا الدليل ، والذي يلزمهم ان لا بمعنى ليس شاذ وجوابه انه شاذ ما لم تدخل التاء، فاذا دخلت فليس بشاذ ومنها ما يلزمهم من اضمار الاسم فى الحرف ، لان المعنى عندهم ليس الحين حين مناص ، والحروف لا يضمر فيها .

وجوابه انه قد قوى شبهه بالفعل فأجرى مجراه فى هذا المثال لكثرة الاستعمال مثله .

ومنها ما يلزمهم من الاضمار قبل الذكر ، لان المعنى ليس الحين حين مناص وجوابه : ان مثل هذا الاضمار جائز لقيام القرينة الحالية عليه ، واذا قامت القرينة على الاضمار كان بمثابة تقدم الذكر (68) .

3 ــ ابن الحاجب مع الكوفيين :

ومع هذا الدفاع الحار عن البصريين فانه لم يكن يسلم لهم فى مسائل عديدة من مسائل هذا العلم ، لانه امام مجتهد يأخذ ما صح فى منطقه ولا يكون معهم كالآلة التي لا ارادة لها ولا عقل .

وقد عرفنا ان من مميزات هذا الرجل ، صحة الذهن ، وقوة الفهم ، وحدة القريحة ومن اجل ذلك نراه يوافق الكوفيين في طائفة من المسائل النحوية اكتفى بذكر بعضها كدليل يسند ما اقول :

1) اللغة عند الكوفيين رواية ونقل ، لا قياس وعقل كما يدعي البصريون حيث يعتدون بالقياس والمنطق ، ولا يعتمدون على الرواية والنقل .

وابن الحاجب يؤمن بالاتجاه الكوفي فى هذا المضمار لانه ذكر فى اماليه فى مسالة دخول الفاء فى خبر ان ، واختلاف سيبويه والاخفش فى هذا الدخول .

ذكر ان « الاحكام اللغوية لا تثبت بقياس ، وانما تثبت بالنقل ثم تعلل » (69) .

وعند ابن الحاجب « ان رفع الفاعل ونصب المفعول انما ثبتا بطريق الاستقراء (70) .

2) مذ ومنذ : مذ ومنذ يستعملان اسما فى موضعين : احدهما ان يدخلا على اسم مرفوع لكرة ، وهما حينئذ مبتدآن ، وما بعدهما خبر عنهما واجب التاخير اجراء للرفع مجرى الجر ، وهو مذهب طائفة من الكوفيين واختاره ابن الحاجب (71) .

4 ــ المسائل التي انفرد بها ابن الحاجب :

عرفنا فيما سبق ان ابن الحاجب سار فى ركب البصريين ، ثم خالفهم متبعا الكوفيين فى بعض المسائل التي وضح فيها الحق بجانبهم .

فهل كان ابن الحاجب يدور حول هذين المذهبين فحسب ، يختار اقربهما الى نفسه ، واصحهما فى عقله واقواهما فى نقله . او انه خرج عن هذه الدائرة يلتمس الدليل من غير نظر الى هذا المذهب او ذاك » .

كل الادلة تؤيد هذا الاتجاه ، وتثبت ان ابن الحاجب كان اماما مجتهدا فى النحو كما كان مجتهدا فى الفقه .

ومعنى ذلك ان لابن الحاجب آراء انفرد بها ، وتوجيهات نحوية لم يسبقه احد فيها ، وقد اقر له بذلك كل من ترجموا له ، وكتبوا عنه فقد قالوا ، « وخالف النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم اشكالات والزامات تتعذر الاجابة عنها » (72) . وتقول دائرة المعارف الاسلامية : « وقد اشتهر فى النحو على وجه خاص وهو فى هذا الميدان يختلف عن اسلافه » (73).

فما هي اذن المسائل التي خالف فيها النحاة ، والتي انفرد بها وله توجيهات خاصة فيها ؟ ..

لا استطيع ان احصر هذه المسائل فى هذا المجال الضيق الذي لا يتسع لها ، وانما اذكر بعضها كأمثلة تؤيد ما ذكرت .

---

68) امالي ابن الحاجب ص 106 .
69) الامالي : مخطوط رقم 1034 .
70) مدرسة الكوفة : المخزومي ط ثانية ص 412 .
71) شرح التصريح ج ص 20 (الحلبي)
72) شذرات الذهب ج 5 ص 234 .
73) دائرة المعارف الاسلامية م 3 ص 126 .

1) **الاسمـــاء الستـــــة :**

قال ابن الحاجب لهم فى اعراب هذه الاسمـــاء اقـــوال :

فظاهر مذهب سيبويه ان لها اعرابين تقديـــري بالحركات ، ولفظي بالحروف .... ، وهو مذهب ضعيف لحصول الكفاية بأحد الاعرابين .

وقال الكوفيون : انها معربة بالحركات على ما قبل الحروف وبالحروف ايضا وهو ضعيف لمثل مـــا ضعف له ما تأول المصنف من كلام سيبويه .

ويرى ابن الحاجب : ان اللام فى اربعة منها وهي ابوك ، واخوك ، وحموك ، هونوك اعلام للمعانـــي المتناوبة كالحركات ، وكذا العين فى الباقيين منها اعنى فوك ، وذو مال ، فهي فى حال الرفع لام الكلمة او عينها ، وعلم العمدة وفى النصب والجر علم الفضلـــة ، والمضاف اليه فهي مع كونها بدلا من لام الكلمـــة وعينها حرف اعـــراب .

ويؤيد ابن الحاجب فى هذا الراي بقولـــه : ان دليل الاعراب لا يكون من نسخ الكلمة ، فهى بـــدل يفيد ما لم يفده البدل منه ، وهو الاعراب كالتاء فى بنت تفيد التأنيث بخلاف الواو التي هي اصلها ، ولا يبقى ذو ، وفوك على حرف لقيام البدل مقام المبدل منه (74) .

2) **الحال من المضاف اليه :**

« لا يثبته ابن الحاجب واتباعه » (75) .

3) **الاستفهام المسوغ للابتداء عنده :**

« هو الهمزة المعادلة بأم مثل ارجل فى الدار أم امراة » (76) .

4) الاضافة لا تفيد الا تخفيفا ، وقد ايده فى هذا الراي ابن هشام فقال فى التوضيح : « والدليل علـــى انها اي اضافة الصفة لمفعولها تفيد تخصيصا ان اصل قولك : ضارب زيد ضارب زيدا ، فالاختصـــــاص بالمفعول موجود قبل الاضافة فلم تحدث الاضافـــة تخصيصا .

قال فى التصريح : وفى ذلك رد على ابن مالك حيث رد على ابن الحاجب فى قوله ولا تفيد الا تخفيضا، فقال : بل تفيد ايضا التخصص فان ضارب زيد اخص من ضارب ، قال فى المعنى : وهذا سهو فان ضارب زيد اصله ضارب زيدا بالنصب وليس اصله ضاربـــا فقط فالتخصص حاصل بالمفعول قبـــل ان تأتـــي الاضافة (77) .

5) كل ما دل على هيئة صح ان يقع حالا نحو هذا بسرا اطيب منه رطبا .

قال شارحه الرضى : هذا رد على النحاة فان جمهورهم شرطوا اشتقاق الحال وان كان جامـــدا تكلفوا رده بالتاويل الى المشتق قالوا : لانهـــا فى المعنى صفة والصفة مشتقة ، او ما فى معنى المشتق فقالوا فى نحو : هذا بسرا اطيب منه رطبـــا هـــذا مبسرا اطيب منه مرطبا ، اي كائنا بسرا ، وكائنـــا رطبا » .وهذه ناقة الله لكم آية اي دالة (78) .

قال قال المصنف (ابن الحاجب) وهو الحق لا حاجة الى هذا التكليف لأن الحال هو المبين للهيئة كما ذكره فى حده ، وكل ما قام بهذه الفائدة فقد حصل فيه المطلوب من الحال ، فلا يتكلـــف تأويلـــه بالمشتق » . (79) .

6) **لـــو حـــرف امتنـــاع :**

انها تدل على امتناع الشيء لامتناع غيـــره ، واختلف فى المراد بذلك .

فقال ابن الحاجب فى اماليـــه :

« انها امتناع الاول اي الشرط للثاني اي لامتناع الجواب ، ووجهه بأن انتفاء السبب لا يدل على انتفاء مسببه لجواز ان يكون ثم اسباب اخر .

---

74) الرضى على الكافية ج 1 ص 26 .
75) حاشية ياسين ج 1 ص 366 (الحلبي)
76) التصريح ج 1 ص 169 (الحلبي) .
77) شرح التصريح ج 2 ص 28 (الحلبي)
78) الاعـــراف : 73 .
79) الرضى على الكافية ج 1 ص 190 .

قال ويدل على هذا : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » فانها مسوقة لنفي التعدد في الآلهة بامتناع الفساد ، لا ان امتناع الفساد لامتناع الآلهة ، لانه خلاف المفهوم من مساق امثال هذه الآية ، ولانه لا يلزم من انتفاء الآلهة انتفاء الفساد لجواز وقوع ذلك وان لم يكن تعدد في الآلهة ، لان المراد به فساد نظام العالم عن حالته، وذلك جائز ان لا يفعله الا الله الواحد سبحانه « وتابعه على ذلك ابن الخباز » .

واستنكر ابن هشام في المغني مقالة ابن الحاجب ومن تبعه (81) .

5 — ابن الحاجب وابو علي الفارسي :

تطورت الدراسة النحوية في القرن الرابع الهجري على يد ابي علي الفارسي تطورا كبيرا ، وقد عمل على هذا التطور تلك المناظرات التي كان يعقدها سيف الدولة الحمداني بين كبار النحويين فضلا عن المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بين النحويين في مناسبات مختلفة .

فقد كانت هناك مناقشة بين ابي علي الفارسي وبين أبي سعيد السيرافي ، ولقد قارن التوحيدي بين هذين النحويين الكبيرين ، وكان تحيزه لشيخه الفارسي ظاهرا (82) . وكانت هناك ايضا خصومة عنيفة بين أبي علي ، وبين ابن خالويه تلميذ أبي سعيد السيرافي » .

وان الباحث في هذه المناقشات التي بين هؤلاء العلماء يرى انها قدمت للنحو ثروة كبيرة ، لانها اذكت نار البحث والنقد « وجعلت علماء العالم ينقسمون الى قسمين فقسم يميل الى القياس والتعليل والتعمق ، وتعقيد القواعد في النحو والصرف ، وعلى راس هذا القسم أبو علي الفارسي ، وتلميذه ابن جني ، وقسم يميل الى ترك النحو ممزوجا بالادب والشعر والرواية بعيدا عن حقائق المنطق والتعليلات والتقسيمات وعلى راس هؤلاء ابو سعيد ، وتلميذه ابن خالويه » (83) .

وعلى الرغم من ان ابا علي او بالاحرى مدرسة أبي علي كانت تتميز بالمنطق واقيسته فانها لم تتعمق فيه الى حد المغالاة كما كان الحال عند الرماني الذي غالى في اقيسته المنطقية حتى قال فيه أبو علي : ان كان النحو ما يقوله الرماني هو النحو فليس معناه منه شيء ، وان كان ما نقوله نحن ، فليس معه منه شيء (84) . ولهذا السبب ظلت مدرسة ابي علي خالدة لتفوقها في النحو واقيسته ، تلك الأقيسة التي كانت تبتعد عن التعمق والمغالاة .

وهذه المدرسة قامت على اصول مدرسة البصرة وقواعدها فطابع البصرية فيها واضح وضوحا لا ينكر ، والدليل على ذلك انه في كتابه الايضاح لا يرى التعجب من السواد والبياض مباشرة ، والكوفيون يرونه (85) .

ويجوز في باب كان عنده ان يتقدم الخبر على الاسم (86) .

واذا كان ابو علي الفارسي صاحب مدرسة في النحو لمع نجمها في القرن الرابع الهجري ، وظلت قبسا مضيئا للنحاة المتأخرين فهل اخذ ابن الحاجب هذا القبس ؟ وهل تاثر بهذه المدرسة ؟

ذكر الرواة ان كتاب « الجمل » للزجاجي وهو كتاب المصريين واهل المغرب واهل الحجاز واليمن والشام الى ان اشتغل الناس باللمع لابن جني والايضاح لابي علي الفارسي (87) .

ومعنى هذا الكلام ان كتاب الجمل كان مدرسة قائمة بذاتها في النحو الى ان ظهر كتاب الايضاح للفارسي واللمع لابن جني فاشتغل الناس بهما وكانا

---

80) الانباه : 22
81) اللمع ج 2 ص 64 .
82) معجم الادباء ج 6 ص 253 .
83) مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد 25 من مقال ابى الفتح ابن جني لاسعد اطلس .
84) البغية ص 344 .
85) ابو علي الفارسي د. شلبي ص 532 .
86) ابو علي الفارسي د . شلبي ص 532 .
87) الانباه ج 2 ترجمة الزجاجي ص 165 .

كمدرسة خلفت مدرسة « الجمل » وقد دوى صوت هذه المدرسة فى العراق والشام ومصر .

ومن المصريين الذين عنوا بالايضاح ابن بري المصري (88) .

ومن العلماء المصريين الذين اهتموا بالايضاح ايضا فى القرن السابع الهجري ابن الحاجب فقد درسه وشرحه (89) .

من هذه النصوص التي ذكرتها نستطيع ان ندرك مدى قيمة نحو الفارسي الممثل فى كتاب الايضاح فى الدراسات النحوية . ونستطيع ان نلمح ايضا اثر الفارسي فى ابن الحاجب ، فدراسته لكتاب الايضاح وشرحه له يبين لنا اثر الفارسي فى ابن الحاجب .

والدارس لكتاب الكافية يرى انها سارت على نسق ترتيب أبي على فى الايضاح وذلك لان الزمخشري فى كتاب المفصل نظر الى ترتيب ابي علي فى كتاب الايضاح حيث جعل كتابه مقسوما على اربعة اقسام: اسماء وافعال وحروف ومشترك بين احوالها (90) .

وقد قال النحاة عن كافية ابن الحاجب : انها تلخيص للمفصل وحقيقة الامر ان ابن الحاجب كان متأثرا فى كافيته بالايضاح وبالمفصل معا .

امثلة توضح اثر الفارسي فى ابن الحاجب :

1) « اذا كان الخبر طرفا ، او جارا او مجرورا رجح ابن الحاجب تبعا للزمخشري والفارسي تقديم الفعل ، لانه الاصل فى العمل ولتعينه فى الصلة »(91)

2) اختلف النحاة فى الحاق تاء التانيث بالفعل فى جمعي التصحيح المذكور والمؤنث — فسيبويه وجمهور البصريين يوجبون التذكير فى الفعل فى نحو قام الزيدون والتانيث فى الفعل فى نحو قامت المدمرات، خلافا للكوفيين فيهما ، فانهم أجازوا فى الفعل مع كل من جمعي التصحيح التذكير والتانيث .

وخلافا للفارسي من البصريين فى جمع تصحيح المؤنث ، فانه انفرد عن أصحابه بجواز الامرين ووافق أصحابه فى وجوب تذكير الفعل مع تصحيح المذكر قال ياسين فى حاشيته : ان ابن الحاجب مشى على مذهب الفارسي (92) .

3) وتختص الواو بجواز عطفها عاملا قد حذف ، وبقي معموله مرفوعا كان نحو اسكن انت وزوجك الجنة (93) او منصوبا نحو : والذين تبؤوا الدار والايمان (94) . او مجرور نحو : ما كل سوداء ثمرة، ولا بيضاء شحمة ، وانما لم يحصل العطف فيهن على الموجود فى الكلام بدون حذف لئلا يلزم فى الاول رفع فعل الامر للاسم الظاهر وفى الثاني كون الايمان متبوأ وانما يتبوا المنزل ، وفى الثالث العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وذلك لا يجوز عند سيبويه والاكثرين .

وقيل يجوز مطلقا حكاه الفارسي وابن الحاجب عن القراء (95) .

4) الضمير اذا اتصل برب مثل ربه فتى او ربه رجلا .

ذهب جماعة كابن عصفور والزمخشري ان الضمير نكرة عائدة على واجب التفكير وقال جماعة كالفارسي معرفة جار مجرى الفكرة (96)

وابن الحاجب يقر فى اماليه فى مطلب «ربه رجلا» ان الضمير فى قوله : ربه رجلا ليس بنكرة ، وانما كان حكمه حكم النكرات باعتبار كونه مبهما اطلق عليه

---

88) سيبويه امام النحاة ص 187 .
89) كشف الظنون مجلد 1 نهر 212 .
90) شرح المفصل للزمخشري : ابن يعيش ج 1 ص 17 ط المنيرية .
91) الجمع ج 1 ص 98 — 99 .
92) التصريح والحاشية ج 1 ص 280 .
93) البقرة : 35 .
94) الحشر : 9
95) التصريح ج 2 ص 154 .
96) حاشية الصبان على الاشموني ج 2 ص 207 (الحلبي) .

النكرة ، ولذلك لم يوصف ، لانه ضمير بلا خـــلاف والضمائر لا توصف (97) واذا قارنا بين قول ابي علي وبين قول ابن الحاجب فى هذا الضمير لرأينا الفكرة واحدة .

هذه امثلة تدل على ان ابن الحاجب كان يميل احيانا الى آراء ابي علي فى كثير من المسائل النحوية ؛ وليس فى هذا الميل نقصان لشخصية ابن الحاجب فأبو علي امام مجتهد فى النحو تطور النحو على يديه بما وضع من مقاييس وتعليلات وكانت له نزعة بصرية توجهه وجهتهم فى كثير من المسائل النحوية ، فلا حرج اذن على ابن الحاجب المنطقي الذي يؤمن بالقياس والعلة، والبرهان والجدل ـــ شأنه شأن البصريين .. لا حرج عليه ان يتأثر بأبي علي فى بعض المسائل النحويـــة ، لانه يشبهه الى حد كبير فى نزعته الى القياس وميله الى المنطق .

على ان تبعية ابن الحاجب للفارسي ليســـت تبعية عمياء ، وانما التبعية التي يتضح فيها الدليل ، ويستقيم المنطق ، وتتبين فيها الحجة ولا ادل على ذلك من ان ابن الحاجب خالف ابا علي فى بعـــض المسائل ، خالفه لانه لم ير فى رأيه القوة التي تحمله على التبعية .

ومن غير شك ، ان هذه المخالفة ان دلت على شيء فانما تدل على شخصية ابن الحاجب النحويـــة تلك الشخصية التي لا تتقبل رأيا الا بعد تمحيـــص وتدقيق وبحث ومناقشة ، لا تتقبل رأيا الا بعـــد ان تسلط عليه اضواء عقلها ، واشعة فكرها لتتبين وجه الحق فيه ، فاذا ما صح هذا الراي فى نظره اخذه من غير مبالاة ايا كان مصدره وايا كان منبعه بصريا او كوفيا او بغداديا .

واذا لم يصح فى رأيه رفضه ، ومع الرفـــض الاسباب المنطقية التي دعته الى الرفض اذن فابن الحاجب لا يتقيد بمذهب معين ولا بتوجيه معين ، لا يتعصب للبصريين او للكوفيين من غير نظر وروية ، لا يؤمن بقداسة كبار النحاة ولا بالآراء التي تصـــدر عنهم فكما قدمت رأينا كيف ناقش البصريين ، ورفض بعض مسائلهم ، كما انه ناقش الكوفيين ، وهدم بعض نظرياتهم حتى سيبويه امام النحو واستاذه وضـــع آراءه على المشرحة فما صح اخذه وما لم يصح رفضه، وقد تقدمت امثلة تؤيد هذا الذي قلت . ولا استطيع فى هذا المجال الضيق ان اعدد المآخذ التي اخذها ابن الحاجب على ابى علي ، الا اني اكتفي بسرد بعضها كدليل على ان ابن الحاجب كان شخصية مستقلة ، تؤمن بالاستقلال الى حد كبير .

قال الاشموني شارحا قول ابن مالك فى الممنوع من الصرف .

وكن لجمع مشبه مفاعـــلا او المفاعيل بمنع كافلا

يعني انه مما يمنع من الصرف الجمع المشبه مفاعل او مفاعيل ، اي فى كون اوله مفتوحا ، وثالثها الفا غير عوض ، يليها كسر غير عارض ملفـــوظ او مقدر على اول حرفيه بعدها ، او ثلاثة اوسطها ساكن غير مستوي به وبما بعده الانفصال ، فان الجمع متى كان بهذه الصفة كان فيه فرعية اللفظ بخروجه عن صيغ الآحاد العربية وفرعية المعنى بالدلالـــة علـــى الجمعية فاستحق منع الصرف .

ثم قال فى التنبيهات : اتفقوا على ان احـــدى العلتين هي الجمع واختلفوا فى العلة الثانية .

فقال ابو علي : هي خروجه عن صيغ الآحـــاد، وهذا الراي هو الراجح .

وقال قوم : العلة الثانية تكرار الجمع تحقيقا او تقديرا فالتحقيق نحو : اكالب ، واراهط ، اذ هما جمع اكلب وارهط والتقديري نحو مساجد ومنابر فانه وان كان جمعا فى اول وهلة لكنه بزنة ذلك المكـــرر أعني اكالب واراهط فكأنه ايضا جمع جمع ، وهـــذا اختيار ابن الحاجب ، واستضعف تعليل ابي على بأن افعالا وافعلا نحو افراس وافلس جمعان ، ولا نظير لهما فى الآحاد ، وهما مصروفان (98) .

1) الزمخشـــري وابن الحاجب :

كان ابن مالك يقول عن ابن الحاجب : انه اخذ نحوه من صاحب المفصل وصاحب المفصل نحـــوي صغير (99) .

---

97) الامالي ص 63 (مخطوط 1034) نحو دار الكتب .
98) الاشمونني ج 3 ص 243 .
99) البغيـــة ص 55 .

ومعنى هذه العبارة ان ابن الحاجب تلميذ للزمخشري تأثر به وسار على نهجه وردد آراءه ودافع عنها ، وليس له فكر مستقل يستعمله فى العويص من المشكلات النحوية وبعبارة اخرى ، ليس ابن الحاجب اماما مجتهدا فى النحو ، يأخذ ما يمليه عليه غيره من غير نظر او بحث .

وحقيقة الامر انه ان صح ما قاله ابن مالك ، فان هذا تقليل من مكانة الرجل من غير دليل ؛ وتضعيف لشخصيته من غير حجة .

والحقيقة التي لا شك فيها ان ابن الحاجب كما قلت اكثر من مرة — له شخصيته المستقلة فى توجيهاته وفى آرائه وهو وان تأثر بالبصريين أو بأبي علي فى بعض المواطن فهو التأثر الذي لايذيب شخصيته ولا يفني تفكيره ولا يميت عقله .

والدليل الاوضح على ان ابن الحاجب لم يكن نسخة طبق الاصل من الزمخشري يردد آراءه ويتعبد بأقواله ، ويأخذ بوجهة نظره كما ادعى ابن مالك هو املاؤه على المفصل للزمخشري ؛ ونقده له فى كثير من المسائل وفى كتاب : الامالي : جعل قسما خاصا لاملائه على المفصل ناقدا وموجها ، شارحا وممحصا مما يدل على ان ابن الحاجب صاحب قريحة وقادة من الصعب عليها ان تسير فى ركب اي اتجاه نحوي من غير ان تبصر الهدف وتتعرف على الطريق .

1) قال رضى الله عنه مليا على قوله تعالى وامسحوا برءوسكم وارجلكم (100) من قرا بالخفض عطفا على قوله برءوسكم ، والمراد اغسلوا ارجلكم وليس الخفض على المجاورة وانما على الاستغناء باحد الفعلين عن الآخر .

والعرب اذا اجتمع فعلان متقاربان فى المعنى ولكل واحد متعلق جوزت ذكر احد الفعلين وعطف متعلق المحذوف على المذكور على حسب ما يقتضيه لفظه حتى كانه شريكه فى اصل الفعل اجراء لاحد المتقاربين مجرى الآخر كقولهم تقلدت بالسيف والرمح ، وعلفتها بالتبن والماء .

وقال الامام الزمخشري — انه مخفوض على الجوار ، وليس يحيد اذ لم يات الخفض على الجوار فى القرآن الكريم ، ولا فى الكلام الفصيح ، وانما هو شاذ فى كلام من لا يؤبه له من العرب فلتحمل الآية على ما ذكر (101) .

وهذا الرد من ابن الحاجب ينبهنا الى أمر آخر خالف فيه الزمخشري كل المخالفة وذلك لان الزمخشري كان يؤيد مذهب أبي على فى القياس ، فقد كان يرى الاحتجاج بأقوال المولدين ، والقياس عليها (102) .

اما ابن الحاجب فلم يتبع هذا ولا ذاك ، بل يقرر ان الاستشهاد النحوي يبحث عنه فى القرآن الكريم، ثم فى الكلام الفصيح ، اما ما عدا ذلك فهو كلام من لا يؤبه له من العرب ممن لا يصح فى مذهبه ان يستشهد بقوله او يؤخذ بكلامه .

2) تعقيبه على الزمخشري حينما قال : المبني هو الذي سكون آخره وحركته لا يعامل ... تقدم ذكر ذلك ص 18 ، من البحث .

وليس معنى مخالفة ابن الحاجب للزمخشري انه كان متعصبا ضده ينتقده فى كل راي ويهدمه فى كل فكرة ، لا .. لم يكن هذا من شيمة ابن الحاجب لانه كان رائده الحق ، والحق وحده ؛ انى وجده اخذه بغض النظر عن مصدره ومنبعه .

لهذا فقد وافق الزمخشري فى بعض المسائل التي وضح فيها الدليل وليس معنى هذه الموافقة انه اخذ نحوه منه ، لان ابن الحاجب لا يوافق على راي الا بعد مناقشة وبحث ، موافقة مصدرها الاجتهاد والعمق لا الاتباع والتقليد .

فمن المسائل التي وافق فيها ابن الحاجب الزمخشري :

1) السموات : قوله تعالى : خلق الله السموات (103) مفعول مطلق لبيان النوع عند الزمخشري وابن الحاجب .

---

100) المائدة : 6
101) الامالي : ص 55 .
102) من اسرار اللغة . الدكتور ابراهيم انيس ص 20 .
103) العنكبوت : 29

وذلك كما يقول ابن هشام فى المغني : ان المفعول به ما كان موجودا قبل الفعل الذي عمل فيه ، ثم اوقع الفاعل به فعلا .

والمفعول المطلق ما كان الفعل العامل فيه هو فعل ايجاده ، وان كان ذاتا لان الله سبحانه موجد للافعال وللذوات جميعا (104) .

2) وسواء عليهم انذرتهم ام لم تنذرهم (105) .

الزمخشري مثل بالآية لتقدم الخبر . قال ابن الحاجب : كون سواء خبرا مقدما هو الصحيح ، وقول الأكثر (106) .

3) جميع الاوزان من غير الثلاثة اسم فاعل مطلقا عند ابن الحاجب والزمخشري لان الصفة المشبهة عندهم لا تكون مجارية للمضارع وان لم يقصد بها الحدوث (107) .

7 ــ ابن الحاجب والقراءات :

القرآن الكريم افضل ما يحتج به فى تقرير اصول اللغة ، فانه نزل بلسان عربي مبين .

ولا يمتري احد فى انه بلغ من الفصاحة وحسن البيان الذروة التي ليس بعدها مرتقى ، فيجب ان نأخذ بالقياس على ما ورد عليه ، كلمة ، وآياته من احكام لفظية (108) .

وقال الرازي فى تفسيره عند قوله تعالى : «تساءلون به والارحام»، اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز اثباتها بالقرآن العظيم اولى وكثيرا ما نرى النحويين متحيرين فى تقرير الالفاظ الواردة فى القرآن الكريم فاذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وانا شديد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلا على صحتها فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان اولى (109) .

وابن الحاجب لم يكن كما كان غيره من النحاة البصريين ينظرون الى القراءات نظرة الريبة والشك، بل كان يؤمن بتواتر القراءات السبع وان الاستشهاد بها احرى من الاستشهاد بغيرها واقوى . وقد قلت سابقا : انه رد الخفض على الجوار وبين انه غير جيد اذ لم يات فى القرآن الكريم بقراءاته المشهورة ، ثم الكلام الفصيح قال ابن الحاجب فى مختصر المنتهى : ان القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبل الاداء، كالمد والامالة وتخفيف الهمزة ونحوها (111) .

ومع هذا لم يسلم ابن الحاجب من النقد فى قوله: « ان المد والامالة وتخفيف الهمزة ، ونحوه غير متواتر » .

فقد تعرض له ابن الجزري بقوله : ليت شعري من الذي تقدم ابن الحاجب بهذا القول فقص اثره ؟ فلو فكر الشيخ فيما قاله لما اقدم عليه ، وليت الامام ابن الحاجب اخلى كتابه من ذكر القراءات واثرها كما اخفى غيره كتبهم منها ، بل ليته سكت عن التمثيل (112) .

هذا واذا قارنا بين ما قاله ابن الحاجب عن القراءات وتواترها بما قاله الزمخشري عنها لوجدنا ان ابن الحاجب يختلف تمام الاختلاف عن الزمخشري فالقراءات عند الزمخشري غير متواترة وينبني على هذا ان الزمخشري يسقط القراءات من حسابه فيسقط اصلا من اصول الاستشهاد فى اللغة كبيرا .

---

104) التصريح ج 1 ص 80 .
105) البقرة : 6 .
106) حاشية ياسين ج 1 ص 155 .
107) حاشية ياسين ج 2 ص 78 . طر الحلبي
108) القراءات واللهجات عبد الوهاب حموده ص 129 .
109) نفس المصدر ص 130 .
110) الامالي ص 130 .
111) مختصر المنتهى الاصولي ص 49 مطبعة كردستان العلمية .
112) القراءات واللهجات ص 70 .

قال الزمخشري فى تفسيره « الكشاف » عند تعرضه لتفسير الآية القرآنية « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » : واما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم ، برفع القتل ، ونصب الاولاد وجر الشركاء على اضافة القتل الى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا ، فكيف به فى الكلام المنثور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته .

والذي حمله على ذلك انه رأى فى بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الاولاد والشركاء ، لان الاولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب (113) .

قال أبو حيان معقبا على الزمخشري فى تفسيره (البحر) :

« وقرأ ابن عامر كذلك الا انه نصب اولادهم وجر شركائهم ، فصل بين المصدر المضاف الى الفاعل بالمفعول وهي مسألة مختلف فيجوازها فجمهور البصريين يمنعونها متقدموهم ومتأخروهم ، ولا يجيزون ذلك الا فى ضرورة الشعر .

وبعض النحويين اجازها ، وهو الصحيح لوجودها فى هذه القراءة المتواترة المنسوبة الى العربي الصحيح المحض ابن عامر ، الآخذ بالقرآن على عثمان بن عفان قبل ان يظهر اللحن فى لسان العرب (114) .

ثم قال أبو حيان موجها نقده اللاذع للزمخشري حيث رد قراءة ابن عامر : « واعجب لعجمي ضعيف فى النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها فى لسان العرب فى غير ما بيت ، واعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الائمة الذين تخيرتهم هذه الامة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم (115) .

ومن هنا نعرف لابن الحاجب قدره فهو لم يكن كالزمخشري يجري وراءه ويقتفى اثره فى كل ما يقول ابن مالك : اخذ نحوه عن صاحب المفصل . وصاحب المفصل نحوي صغير .

هذه خطوط عريضة لاتجاهات ابن الحاجب النحوية ، فهو بصري ان صح له دليل البصريين، وهو كوفي ان وضحت له حجة الكوفيين وهو متأثر بأبي علي اذا كان رأيه مؤيدا بالمنطق ويتبع الزمخشري اذا كان دليله مدعما بالبرهان .

ورجل شأنه هكذا لابد أن يكون مستقلا فى آرائه وتوجيهاته ، بعيدا عن التعصب ونزعات الهوى ، قريبا من الحق انى وجده ، تحيط بآرائه ادلته كما يحيط السوار بالمعصم يستشهد بالقرآن الكريم ، وبالقراءات المتواترة ، وبالكلام العربي الفصيح ، يستخدم القياس وقضايا المنطق فى مسائل النحو ، وينظر الى العلة نظرة التقديس والاجلال .

---

113) الكشاف : الزمخشري ج 2 ص 70 ط ثانية (مطبعة دار الاستقامة)
114) البحر المحيط : ج 4 ص 229
115) البحر المحيط : ج 4 ص 230 .

مـــراجـــــع البحـــــث

1) الاشباه والنظائر فى النحو : السيوطي : الطبعة الثانية : حيدراباد .
2) الاقتراح : السيوطي : مطبعة دار المعارف النظامية : حيدر أباد .
3) الامالي : ابن الحاجب مخطوط رقم 1007 نحو ـــ دار الكتب المصرية .
4) **انباه الرواة : جمال الدين على بن يوسف القفطي** : تحقيق الاستاذ أبي الفضل. مطبعة دار الكتب .
5) **البحر المحيط : اثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان** : مطبعة السعادة.
6) **البداية والنهاية : أبو الفداء عماد الدين اسماعيل** .
7) البغية : السيوطي : مطبعة السعادة (الطبعة الاولى) .
8) تاريخ سوريا : يوسف الياس مطران : مطبعة بيروت 1952 .
9) حاشية الصبان على الاشموني : محمد بن علي الصبان : مطبعة الحلبي .
10) حاشية ياسين على التصريح : ياسين بن زين الدين العليمي : مطبعة الحلبي.
11) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية : الدكتور أحمد أحمد بدوي : مطبعة نهضة مصـــــر .
12) خطط الشام : محمد كرد علي : المطبعة الحديثة بدمشق 1925 .
13) دائرة المعارف الاسلامية .
14) روضات الجنات فى احوال العلماء والسادات : محمد باقر بن زين العابدين .
15) سيبويه امام النحاة : الاستاذ علي النجدي : مطبعة لجنة البيان العربي .
16) شذرات الذهب : ابن العمـــاد .
17) شرح التصريح : الشيخ خالد بن عبد الله الازهري ـــ مطبعة الحلبي .
18) شرح الرضى على الكافية : محمد بن حسن الرضى : مطبعة مجمع الرضى 1275 هـ .
19) الطالع السعيد : الادفوي : كمال الدين أبو الفضل : مطبعة الجمالية بمصر .
20) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده . دكتور جمال الدين سرور ـــ دار الفكر العربـــي .
21) أبو علي الفارسي : دكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي : مطبعة نهضة مصر .
22) غاية النهاية : ابن الجزري : مطبعة السعادة .
23) القراءات واللهجات : الاستاذ عبد الوهاب حموده : مطبعة السعادة .
24) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ـــ الزمخشري : مطبعة دار الاستقامة
25) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : وكالة المعارف باستانبول .
26) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .
27) مختصر المنتهى الاصولي : ابن الحاجب : مطبعة كردستان .
28) مدرسة الكوفة : الدكتور مهدي المخزومي : مطبعة الحلبي .
29) معجم الادباء : ياقوت بن عبد الله الحموي : مطبعة الحلبي .
30) من اسرار اللغة : الدكتور ابراهيم انيس : مطبعة لجنة البيان العربي .
31) النجوم الزاهرة : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغزي بردي ـــ مطبعة دار الكتب المصرية .
32) النشر فى القراءات العشر : ابن الجزري : مطبعة التوفيق بدمشق .
33) همع الهوامع جمع الجوامع : السيوطي : مطبعة السعادة .
34) وفيات الاعيان : ابن خلكان : تحقيق الاستاذ محمد محي الدين ـــ مطبعـــة السعـــــادة .